الحياة الطيّبة
السنة ١٩
العدد ٣٠
شتاء - ربيع ٢٠١٥م
أبحاث ودراسات

الوصيّة في التراث العربيّ الإسلاميّ من بيان التعبير إلى غايات الترشيد

(وصيةُ الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى ولده الإمام الحسن عليه السلام أنموذجاً)

د. عبد الفضيل ادراوي[1]

أولاً: الوصيّة (إمكانات البلاغة وإشكالات الجنس):

تُعدّ الوصية من الأشكال التعبيريّة ذات الحضور البيّن في التراث العربيّ الإسلاميّ، فقد وظّفها السياسيّون والفقهاء والشعراء والمتصوّفة والبلاغيّون وكتّاب الأدب العامّ وغيرهم. وهي خطاب مرن وراجح، ترد في صورة النصّ المتكامل ذي البنية المستقلّة، متّخذة الصيغة النثريّة أو الشعريّة أو المختلطة. وقد ترتحل، فتستدعي عنصراً مكوّناً لأشكال قوليّة مغايرة، قريبة منها، كالخطبة، والحكمة، والمثل، والرسالة، والكتاب، والموعظة، والخطاب الدينيّ[2]، أو بعيدة عنها، كالخطاب التاريخيّ،

(١) باحث في الفكر الإسلاميّ، من المغرب.

(٢) في القرآن الكريم والأحاديث النبويّة الشريفة وصايا مختلفة، باختلاف الجهة الموصية، وباختلاف الموضوعات والأغراض منها. وقد شكّل النصّ الدينيّ محفّزاً لإنتاج الوصيّة والاهتمام بها. فجاءت آيات بصيغة التوصية، وأخرى حثّت على إنجاز الوصيّة وإنتاجها، وأخرى على العمل بها وتطبيقها. منها: ما يتعلّق بالإرث، والوصيّة للأزواج، والوصيّة بالشرع والدين والتقوى، والوصيّة بالوالدين، والوصيّة بالفرائض. لمزيد من التوسّع، انظر: وائلي، خير الدين: وصايا الرسول ﷺ وتوجيهاته، ط١، الجزائر، الشركة الجزائرية اللبنانية، ١٤٢٨هـ.ق/ ٢٠٠٧م، ص٨-١١.

والسرديّ، والسِّيريّ... كما أنّها تتعدّد حجماً وموضوعات وسياقات، وترتبط بأوضاع ثقافيّة وتداوليّة تند عن الحصر[١].

وإذا كان البعض قد عدّها «**صورة مصغّرة لنمط الكتابة قديماً، ومعبّرة عن خاصّيّة الأدب العربيّ، وهي الإيجاز، بوصفه أسمى المطالب البلاغيّة، وأكثرها شهادة على مراتب البيان**»[٢]، فإنّها أكثر من ذلك، يمكن أن تُعدّ من أبرز الروافد المؤسّسة للكتابة الإبداعيّة في تاريخ النثر العربيّ، بالنظر إلى كثرة انتشارها، ودرجة استهلاكها، وتنوّع أشكالها، وقدرتها على التسلّل إلى مختلف الخطابات الأخرى.

وقد آثرنا في هذه المقالة تحليل وصيّة الإمام عليّ عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام، نظراً إلى شهرتها[٣] من جهة، ولكونها تشكّل أنموذجاً متكاملاً لخطاب الوصيّة، فهي ليست قولاً عفويّاً ارتجاليّاً، ولا وليدة لحظة نفسيّة استشعرت فيها الذات ضعفها وقرب فنائها، فبادرت للبوح بمكنونها، بل هي خطاب غائيّ، خاضع لاستراتيجيّة قوليّة تروم التغيير وإيجاد الإنسان الأفضل في واقع أحسن، بما يعسر معه فصلها عن غاياتها الحجاجيّة الإقناعيّة. كما أنّها من الوصايا الطوال والعامّة، لا ترتبط بلحظة خاصّة، ولا بموضوع محدّد، ولا تمثّل نوعاً دون سواه، كأنْ تكون مرتبطة ببرهة سياسيّة خاصّة، كما هو مألوف في عديد من الوصايا التي تسبق الخروج إلى المعارك، أو إعداد الموصى للمواجهة أو السفر أو الإقدام على أمر اجتماعيّ ما.

(١) تتنوّع الوصايا، بحسب طبيعة الجهة الموصية، فقد تكون صادرة عن جهة غيبيّة (وصايا القرآن الكريم والكتب المقدّسة)، وقد تصدر عن جهة بشريّة حاملة لسمات التأييد الغيبيّ، تجعلها فوق بشريّة، كوصايا الرسل عليهم السلام والأنبياء عليهم السلام، ووصايا ذات سمت أدبيّ بيانيّ خطابيّ محض، كوصايا الأدباء والسياسيّين والخطباء والحكماء، ثمّ الوصايا الشعبيّة من الآباء والأمّهات للأبناء وغيرهم. هذا التنوّع من شأنه أن يغني المقاربة التحليليّة البلاغيّة للوصيّة، ويمنحها كثيراً من الحيويّة الدلاليّة والتداوليّة.

(٢) البهلول، عبد الله: الوصايا الأدبيّة إلى القرن الرابع الهجريّ (مقاربة أسلوبيّة حجاجيّة)، ط١، لبنان، مؤسّسة الانتشار العربيّ، تونس، دار محمد علي للنشر، ٢٠١١م، ص٦٣.

(٣) فقد نُظرَ إليها، بوصفها من أعظم تراث الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة، «وصيّة تربويّة تهذيبيّة.. وجّهها الإمام إلى ولده ظاهراً، وإلينا واقعاً، يحتاج كلّ منّا إلى أن يقف أمامها وقفة المتأمّل: يقف عند كلّ فقرة، بل عند كلّ كلمة، يفكّر فيها.. يحلّلها.. يدرسها.. يعيشها.. ويحوّلها إلى حركة حيّة.. تحتاج إلى تحليل وتدقيق». انظر: الموسوي، عباس علي: الوصيّة الخالدة، شرح وصّية الإمام علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام، ط١، بيروت، دار الأضواء، ١٤٠٥هـ.ق/ ١٩٨٥م، ص٧.

ولقد قيلت هذه الوصية إبّان خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام، وتخصيصاً بعد عودته من حرب صفّين. وكانت مرحلة مليئة بالمعاناة والاضطرابات، بسبب حرب فُرِضَت عليه ضدّ فئة عريضة من المسلمين، قاموا بشقّ عصا الطاعة، وخرجوا على إمام زمانهم. فكانت حرباً شعواء ذهب ضحيّتها أناسٌ كثرٌ. واستمرّ تأثيرها طويلاً وعميقاً في نفسيّة الموصي، فلا ريب أنْ تحمل الوصيّة آثار هذا السياق التاريخيّ الاجتماعيّ المرير، وأنْ تكشف عن انشغالات الذات الموصية وهواجسها[1].

هذه الملامح البلاغيّة العامّة، بقدر ما تشير إلى غنى هذا الخطاب وحيويّته، تنبئ عن هويّته الإجناسيّة غير المستقرّة. فعلى الرغم من أنّ الموصي يعين مخاطبه: «**من الوالد ... إلى المولود**»، جاعلاً أفق التلقّي محصوراً ضمن دائرة الكتابة المتّصلة بالذات، في علاقتها بمحيطها الأسريّ، وبوظيفتها التربويّة الترشيديّة، ولكنّ ذلك يبقى مُعْطى غير ضابط للهويّة الإجناسيّة لهذا القول، بالنظر إلى تداخله مع أجناس أخرى، كالرسائل - مثلاً -، خاصّة الرسائل الإخوانيّة، بما هي كتابة للذات في علاقتها بالمحيط الأسريّ، ومحكومة بغايات ترشيديّة محضة. وفي النصّ ملفوظات تصرّح بتأطير المتكلّم مادّته ضمن دائرة الوصيّة، كقوله: «**فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي، مُسْتَظْهِراً بِهِ، إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ**

(١) كما هو مقرّر في نظريّات الخطاب المعاصرة، فجوليا كريستيفا -مثلاً- تشير إلى أنّ الخلفيّات الثقافيّة والاجتماعيّة وغيرها، كلّها عناصر ترتقي بالنصّ إلى نسيج تتشابك شفراته وصياغاته ومدلولاته، بشكل لا يمكن معه أن تغيب أو تختفي داخل الذات الكاتبة، بل «إنّ الذات الكاتبة هي التي قد تبدو متخفّية داخلها». انظر:

Kristeva. Julia: Recherche pour une sémanalyse, Seuil, 1969, p373.

ويشير رولان بارت إلى الحقيقة نفسها، مبيّناً أنّ أيّ خطاب يتموضع ضمن مجالات التبادل (Intercours)، وفيه يتمّ تبادل شفرات غير محدّدة، وقد تكون غير واقعة في نشاط الكاتب. وهو نسيج من الدلائل المتعدّدة والمتنافرة أحياناً، وهو حقل عامّ من الاستشهادات والصياغات والنصوص والثقافات السابقة والمعاصرة، وأصداء اللغات الاجتماعيّة، وتأثير السنن الثقافيّ، وهو فضاء لشفوف العلاقات الثقافيّة والاجتماعيّة وتفاعل اللغات. لمزيد من التوسّع، انظر:

Barthes, Roland: (Théorie de texte) Encyclopédia Universalis, Paris, 1990, p370-377.

وانظر -كذلك-: بارت، رولان: «من الأثر الأدبيّ إلى النصّ»، مقالة ضمن كتاب «درس السيميولوجيا»، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، ط١، دار توبقال، ١٩٨٦م، ص٦٠-٦١.

فَنيتُ»[١]، وقوله: «فَإِنِّي أُوصِيكَ..»[٢]، و«بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ»[٣]. لكن، في الآن ذاته، ثمّة ملفوظات عديدة مبثوثة في النصّ، تشير إلى حضور خطابات أخرى، كالخطاب الدينيّ، والتاريخيّ، والسِيَريّ، وخطاب أدب الأمثال والموعظة والدعاء، وحتّى الخطاب الفلسفيّ. وهي كلّها خطابات تُسْتَدعَى بشكل من الأشكال في نصّ الوصيّة، فتفرض على البحث في البلاغة النوعيّة لهذه الوصيّة، مراعاة هذا التداخل، واستحضار كونها محسوبة على الكتابة المتحرّكة وغير الثابتة.

ثانياً: الوصيّة بين الغرض البلاغيّ والبعد الجماليّ:

لعلّ من تجلّيات البلاغة النوعيّة للوصيّة، كونها خطاباً يولي للمضمون أهمّيّة بالغة. فالدلالة في الوصيّة مكوّن أساس، لأنّها تروم تحقيق التخليق، وإحداث التغيير في الواقع الخارجيّ، والدفع نحو تغيير السلوك، والعزم على الفعل الإيجابيّ. فهي بمثابة دستور متكامل يسطّره الموصي، ويُضَمِّنه كلّ القضايا التي يرى أنّها كفيلة بعصمة الموصَى من الزلل، ليعيش في حياة الموصي أو بعد فنائه، في وضع مأمون من الانحراف أو الفشل، ويكون مؤهّلاً لخوض معركة الصراع مع الحياة وإكراهات الزمن، بصورة لا تسلّمه إلى الندم والحسرة.

إنّ الوصيّة في مجملها أوامر ونواهٍ، ودروس وعبر، وحكم وأمثال، وتأمّلات في أحوال الإنسان، والحياة، والموت، والذات، والآخر، وحقائق متنوّعة، يوجّهها الموصي، متتابعةً ومكثّفةً، بصيغ مختلفة، ويعمل على تجميع أكبر قدر ممكن من الحقائق والمعلومات، وإبلاغها إلى الموصَى، بقصد الاعتبار والانقياد. فهو لا يلزم نفسه الخضوع لتنظيم بَيِّن مُحكَم،

(١) الشريف الرضي، محمد: نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه)، شرح ابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٧٨هـ.ق/ ١٩٥٩م، ج١٦، ص٥٧.

(٢) م.ن، ص٦٢.

(٣) م.ن، ص٦٦.

ولا لرؤية تأليفيّة مسبَقة أو صارمة، بقدر ما يستسلم لحرّيّته ولمنطق كتابته الخاصّ، ولمنطق مقام التوصية والترشيد الذي يتيح له التحرّك ضمن مساحة واسعة، لاستيعاب كثير من القضايا الإنسانيّة، يتمّ التذكير بها، وإطلاع الموصى عليها، بما هي غايات نبيلة مطلوبة.

ويمكن حصر أهمّ القضايا المضمونيّة لهذه الوصية في:

١. التعريف بذات الموصي وتجربته العميقة في الحياة، وما أوقفته عليه من حقائق.

٢. التعريف بالموصَى مولوداً حدثاً لم يَخْبَرِ الدنيا بعد، محكوماً بمغريات وآمال مهلكة.

٣. التعريف بحقيقة الحياة وخطورتها، وما تستلزمه من تنبّه واستعداد لما بعدها.

٤. التذكير بالتاريخ وبأخبار الأوّلين، لاستخلاص العِبَر والدروس.

٥. إصدار المطالب والتوصيات، أوامرَ ونواهيَ، وهي مؤطّرة في مجملها ضمن حدّ عامّ هو ابتغاء تحصيل التقوى والصلاح، والانضباط في الخطّ الإلهيّ. وفي هذا المطلب العامّ اتّجاهان اثنان:

أ. الأوّل: ابتغاء الصلاح الذاتيّ الفرديّ، عبر الذكر، والدعاء، والتزام العبادات والفرائض، والاجتهاد في إصلاح شأن القلب.

ب. الثاني: ابتغاء الصلاح المجتمعيّ، والتحرّك لإقامة المجتمع الإنسانيّ المثاليّ والربّانيّ، الذي يكون فيه الفرد عنصراً خيّراً ومفيداً للآخرين، ويكون فيه الولد مطمَأَنّاً عليه في عاجله وآجله.

واللافت أنّ الموصي، وهو يتحرّك ضمن حدود هذه الموضوعات، يتيح لنفسه هامشاً واسعاً من الحرّيّة، فيعرض القضايا وفق ما يرى أنّه نهج كفيل بإنفاذ الرسالة إلى الولد. فأحياناً يصدر توصياته متتابعة، يراكمها، مجملة وعامّة، وأحياناً يعمد إلى التفصيل والتفسير الدقيق (حقيقة الحياة الدنيا - حقيقة الإنسان وحقيقة الطباع البشريّة في

الواقع المشهود - أخبار الأوّلين والأمم السابقة - حقيقة الدعاء - حقيقة المرأة..). وأحياناً يمرّ مرور الكرام على قضايا، تبدو من المسلّمات (قضيّة التوحيد - البعث..). وقد يعيد القضية ويكرّرها مرّات متعدّدة (التقوى - خطر الموت وضرورة ذِكْره باستمرار - خطر الدهر وتقلّب الأيام..). وفي كلّ الأحوال، لا يخضع الموصي سوى لمنطقه الخاصّ في الكتابة، ولحرّيّته في القول والتأليف، على نحو يجعله مؤثّراً وفاعلاً.

وفي كلٍّ، ليس هَمّ الموصي همّاً إبداعيّاً محضاً، لأنّ همّه الاستعداد للرحيل والتفكير في مصيره[1]، والاعتناء بالولد وبتبليغه خلاصة تَجاربه وتأمّلاته في الحياة.

ولكنّ الوصية لا تُعدَم عناصر جماليّة تضمن للخطاب مستويات من المقبوليّة والاستجابة. بل لعلّ من عوامل استمرار الوصيّة مادّة تعبيريّة رائجة وحيّة بين الناس، توسّلها بالعناصر البيانيّة الجماليّة والإقناعيّة، التي تجعلها قريبة من الأنفس والعقول. فالنصّ - إضافة إلى ارتباطه بالغايات التأثيريّة الخارجيّة، وبالرغبة المعلنة في تغيير الإنسان - خطاب لا يمكن إنكار بعده الجماليّ التعبيريّ، بالنظر إلى أنّ الوصية عموماً مرتبطة بالتجربة الشخصيّة لمنتجها. فهي ذات نصيب من التعبير عن الحقيقة الإنسانيّة، عاملة على صياغتها، وفق اختيارات تعبيريّة شخصيّة، لا تبخل بتوفير عناصر التشكيل، وبتفاصيل الصياغة الحسنة، الكفيلة باستنبات جماليّة قابلة للوصف والتتبّع، بمثل ما هي قادرة على التسلّل إلى روح القارئ، والاستحواذ على كيانيه النفسيّ والعقليّ.

(١) يشير عبد الله البهلول إلى ارتباط الوصيّة في حقيقتها ومعانيها بمقام الموت: فـ «الوصيّة - على تنوّع موضوعاتها واختلاف أطرافها - تصدر عن رجل على وشك الموت للأحياء، إذ هي به مقترنة، وعليه تحيل. فالوصية تنشأ وتنجز لحظة الإحساس بقرب الأجل ودنوّ الموت». انظر: الوصايا الأدبيّة، م.س، ص٥٤.
وهذا كلام قد يصدّقه متن الوصيّة المدروسة، لوجود مؤشّرات لفظيّة تصرّح بإحساس الموصي بقرب أجله وإمضائه جلّ عمره، ولكن ثمّة وصايا عديدة واردة في القرآن الكريم، وفي غيره، تَرِدُ في سياقات غير الموت. وثمّة وصايا إبداعيّة محضة صادرة عن بعض الشطار والمكدين والمهمشين والعشاق في المجتمع، يُراد بها معارضة السياق الأخلاقيّ العامّ، وتعمّد مخالفة المتعارف من القيم والأخلاق. وهي نوع قائم بذاته، تُعدّ تنويعاً من تنويعات الوصّية، لا يمكن أن تسعف في تجريد ومحايثة الحكم السابق.

ثالثاً: الموصِي (الوالد) وسِمَة الاستضعاف:

تحتلّ الأنا مكانة مهمّة ضمن نسيج الوصيّة، ليس بما هي ذات كاتبة ومُنتجة للخطاب (**فكتبتُ إليكَ كتابي - فعهدتُ إليكَ وَصيّتي**)[1]، بل بوصفها مكوّناً بلاغيّاً ينهض بوظيفة تأثيريّة في النصّ. فالموصِي يوزّع عديداً من الملفوظات، صراحة وضمناً، تشكّل مجتمعة صورة عن ذاته، على نحو تغدو بموجبه هذه الذات المتلفّظة عنصراً داعماً للخطاب، ومانحة إيّاه قدراً من المصداقيّة، بهدف ضمان التأثير، وإيجاد مسلك إلى نفس الموصى وعقله.

إنّ ذات الموصي عنصر بلاغيّ مقنع، ففي النصّ توزيع سمات عن الموصي تشكّل مجتمعة أنموذجاً عن شخصيّة نصّيّة قادرة على التأثير في المخاطَب (فرداً أم جماعة، قابلاً وموافقاً أم رافضاً ومعانداً ومُعْرِضاً).

فالذات تنهض بوظيفة بلاغيّة لا تنفصل عن مختلف العناصر النصّيّة الأخرى، فتحضر بطابعها المؤثّر والفاعل في المخاطب، عبر أسلوب تجميعيّ تُنتخَبُ له في النصّ كلُّ سمات الضعف والعبوديّة والتذلّل والخضوع، وكلّ سمات الاعتراف والتسليم المطلقين للقوّة الغيبيّة.

إنّ الذات تتشكّل في صورة شاملة وكلّيّة، تؤلّفها سمات إنسانيّة عميقة ومؤثّرة، يسند بعضها بعضها الآخر، لتخلق أنموذجاً إنسانيّاً متميّزاً ومثيراً.

إنّنا حيال إنسان خَبَرَ الحياة، وأدرك أسرارها، وعرف خباياها، وقرأ معالمها، وحلّل ألغازها، يقف عند كلّ منعطف من منعطفاتها، يدرس ظواهره، مثلما يدرس بواطنه، ويستخلص الدروس والعبر، ويصوغ الحكم والأمثال، ويقدّم خلاصة التجارب الحقيقيّة التي عاشها واكتوى بنارها، عساها تكون نبراساً هادياً، ونهجاً قويماً، يُبَلّغ الموصى بَرَّ الخلاص والنجاة.

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٥٧، ٦٨.

ففي ملفوظ استهلاليّ: «**مِنَ الوَالِد الفَانِ، المُقرِّ لِلزَّمانِ، المُدْبِرِ لِلْعُمْرِ، المُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ، الذَّامِّ لِلدُّنْيا، السَّاكِنِ مَساكِنِ المَوْتى، الظَّاعِنِ عَنْها غداً..**»[١].

يستهلّ الموصي بلفظة مباشرة وحقيقيّة، لكنّها ذات حمولة دلاليّة إنسانيّة لا تنضب، تولِّد كثيراً من المعاني والإيحاءات[٢]، فهو الوالد بما يلازمه من معاني العطف والحنان، ومعاني الشفقة والرقّة، ومعاني الرعاية المخلصة للأبناء، حفاظاً عليهم وحيطة لهم. فاللفظة في مستهلّ الوصية تقنية جماليّة تستنشط وتحرّك المخيّلة، وتوجّه المخاطب نحو أجواء الطاعة والامتثال، واستحضار طقوس الثقة والتصديق، واليقين المطلق في ما يقوله الأب، المعنيّ بتوصيل الحقيقة، وتربية الولد على قيم الصدق والصراحة، وامتثال السلوك القويم.

ولنسبة الوصية إلى الأب بُعدٌ تأثيريّ إقناعيّ واضح، فالكلام صادر عن الأبوّة لا عن غيرها، لتترسّخ تفاصيل الوصيّة في ذهن الولد وقلبه، فيعطيها أهمّيّتها، وينظر في مضامينها وكلماتها، لأنّها نابعة من قلب أبٍ رحيم، لا يبغي سوى الخير والصلاح للولد.

ولا يخفى أنّ التعبير بـ (أل) المفيدة استغراق الجنس، يفيد أنّ الموصي يصبو إلى تجريد صورة إنسانيّة عامّة عن الوالد المثاليّ المطلق، الوالد (الكامل) الذي يذوب من أجل أبنائه، ويستعذب في سبيلهم مُرَّ الحياة وعلقَمها، ترسيخاً لمعاني التضحية والصبر، في سبيل الأبناء.

واللافت أنّ الموصي يضع نفسه في حكم الغائب، تجسيداً لغويّاً لحقيقة استشعار الزوال، والتيقّن بحتميّة الرحيل. فالوالد، وإنْ كان حاضراً، جسماً في هذه الدنيا، فهو في حكم الغائب، حقيقةً وبصيرةً،

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٩.

(٢) يشير بيرلمان إلى أنّ العبارات المباشرة والمقبولة تلقائيّاً، وبدون جهد، يكفي في منحها كامل تأثيرها، توظيفها بطريقة ملائمة، حتّى تتمكّن من بناء الفكر، وتحريك النفوس بكيفيّة ناجعة. انظر:
بيرلمان، ش.: التمثيل والاستعارة في العلم والشعر والفلسفة، ترجمة: حم النقاري، مجلة المناظرة، السنة الأولى، العدد الأوّل، ١٩٨٩م، ص١٢٧.

يعيش مع الأموات، ويقيم بين أهل القبور. بل إنّ منظوره إلى المستقبل محكوم -أيضاً- بمحدّدات نفسيّة عميقة، تختزل لديه الزمن، فيغدو - على طوله - فترة قصيرة، ويصير الزمن البعيد زمناً قريباً لا يمتدّ لأكثر من ليلة واحدة (**الظّاعن عنها غداً**).

وتبدو استعارة الغد للمستقبل بكامله، على امتداده وغموضه، استعارة مألوفة، لكنّها في الوقت ذاته إنسانيّة ودالّة، تناسب «**الأفق الانفعاليّ المتوخّى**»[1]. وهي مبرّرة بوعي الموصي الخبير في شؤون الحياة والدهر، الذي انقضى جلّ عمره، ويرى السنين تمرّ مَرَّ السحاب، ويعاين أنقاض الأمم السالفة، ويسكن بين أطلالهم وآثارهم ، الشاهدة على أنّ الموت لم يميّز بين هذا أو ذاك. فالموصي مسكون بحقيقة أنّ الكلّ قد ارتحل ولبَّى داعي الموت، فكيف له، وهو الساكن مساكنهم، أن يطمع في بقاء أو يغفل عن هذه الحقيقة المريرة؟ إنّه -بحقّ- لغد قريب، وإنّها لحركة مستمرّة نحو الزوال منذ الولادة، وإنّه لسير حتميّ في طريق هدم العمر، والتقدّم نحو الآخرة.

هذه الحقيقة العينيّة، تولِّد في الولد، وفي كلِّ متأمّل، اليقينَ التامَّ بالزوال (الوالد الراحل عن الدنيا)، والإقرار للزمن بقهريَّته، والاعتراف بحتمية الموت، تسليماً لأمر الله تعالى ومشيئته. وهي دعوة صريحة للإعراض عن زخارف الدنيا ومغرياتها، مهما تكن جاذبيّتها (**المُقِرِّ للزمان، المستَسْلِم للدَّهر، الذَّامِّ للدُّنْيا**).

فعلي عليه السلام همَّه لقاء الله تعالى، والانكسار المذكور أمام الزمن والدهر وحتميّة الموت، هو تسليم لأمر الله تعالى ومشيئته، وهو في كلامه ليس إلا وسيلة لتنبيه الناس إلى ضرورة الالتزام بطاعة الله تعالى، طالما أنّ السفر إليه تعالى عبر الموت حتميّ، ولا بدّ للإنسان من التزوّد من دنياه من الطاعات لسفره.

(١) بيرلمان، التمثيل والاستعارة، م.س، ص١٢٦.

ومن الطريف التنويه إلى أنّ الملفوظ الاستهلاليّ محكوم تركيبيّاً، بما يزكّي هذا المنظور الاستسلاميّ للأنا، فالجار (مِن) يتصدّر الملفوظات، ويُمضي عليها حكم الكسر، بما هو تصريف تركيبيّ لسمة الانكسار والخضوع، وهي سمة بارزة تهيمن على كلّ الوصية، فكثيراً ما يعدل الموصي عن التعبير بصيغ الرفع أو الفاعليّة، إلى أخرى يبدو معها مجروراً مكسوراً، خاضعاً وتابعاً. وضع يعمّقه تراكم التجارب، وعمق الاطّلاع والتدبّر في الوجود: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي فِي مَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي رَأْيِي، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ..**»[1].

ويترجم الأسلوب هذا الانكسار، من خلال التعبير عن الذات بصيغ الاسم المجرور أو المضاف أو المنصوب، وفي جميع الحالات فهو اسم تابع (فضلة الكلام)، وغير فاعل. وحتّى عندما يستعمل في موقع الفاعليّة يظلّ محكوماً بالجرّ، لأنّه واقع ضمن جملة صلة الموصول، التابعة لغيرها، وهي في موقع الجرّ بالفاء (**في ما تبينتُ**). مساهمة فنّيّة في خَلْق الشعور بالمأساة، وتعميق نفس الاستسلام، وتشكيل ملامح من البكائيّة الدفينة، التي يتمّ تصريفها، عبر تواتر صور جزئيّة متساندة، تساندا تكوينيّاً بالغ التأثير.

إنّ الموصي يتشخّص عظيم المأساة، مستشعراً الأسى والمرارة يملآن جُوانَه، ويلوك المضاضة والألم، بعد ظلم الناس وتخاذلهم وغدرهم، ولا يلوي من عمر مديد قد انفرط عقده، إلا على الحسرة والهمّ.

فها هي الدنيا قد أدبرت وانزوت عنه، متنكّبةً عنه، غير معترفة له بما كافح وأخلص. والدهر، كالفرس الجموح، استعصى على صاحبه، ولم يستطع أن يملكه، وفي ذلك تنبيه للناس إلى ضرورة عدم الركون إلى متاع

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٥٧.

الدنيا، لأنّها زائلة لا تنفع صاحبها إذا ما انتقل عنها بالموت الحتمي، فلا يبقى للإنسان إلا ما تزوّد به من طاعة الله تعالى لداره الآخرة ومستقرّه فيها.

ومن جانب آخر تتعمّق المأساة وتتعاظم، بتبيُّنِه الآخرةَ مقبلةً نحوه، فتبدو مساهَمةً جماليّة في تكثيف سمات الاستضعاف، ورسم معالم حسّاسيّة اللحظة، وتجلية أبعادها التأثيريّة، وامتداداتها الإنسانيّة الخالدة. فكأنّ الإنسان في كلّ كدحه ومثابرته، وفي إخلاصه للحياة الدنيا، لا يجاوز كونه مأخوذاً نحو سراب أو وهم خادع، يتكشّف في نهاية المطاف عن حقيقة الموت إقبال الآخرة. حينئذ يفاجأ المرء، ولا يجد لنفسه من عَزاءٍ ولا مفرٍّ سوى الاستسلام، فتكون المأساة أعمق وأشدّ، ويكون الحزن والبكائيّة أمراً مبرّراً.

وفي هذا بُعدٌ ترشيديّ عامّ، قوامه التنبيه إلى حتميّة الانشغال بالنفس وما ينتظرها، والتحذير من الدنيا وزخارفها الكاذبة، التي سرعان ما تتقشع وتذروها الرياح، فيجد الإنسان نفسه وحيداً ضعيفاً في مواجهة همومه الخاصّة، ومرارته الذاتيّة، لا يشغله سواها، يتقلّب في بحرها، ولا يملك عنها حولاً. فحريّ بهذا الإنسان أن يستعدّ ويتهيّأ قبل فوات الأوان.

ولعلّ لمأساويّة التعبير في الوصية عموماً، مبرّرات أخرى خارجيّة، متّصلة بالسياق التاريخيّ لإنجاز الوصيّة، فقد أنجزت بـ (حاضرين)، المنطقة التي عاد إليها عليّ عليه السلام، من حرب صفين، ضدّ جيش الشام بقيادة معاوية وعمرو بن العاص. وقتئذ كان الموصِي لا يزال يلوك مرارة المواجهة التي فُرِضَت عليه، ويستحضر الدماء التي سالت[1]، ويرى النتائج المأساويّة لانسياق الناس مع أهوائهم وأطماعهم الدنيويّة. وكان يتأمّل كيف أعمت الدنيا واللهاث وراء مطامعها بصائرَ الناس، وكيف

(١) تذكر المصادر التاريخيّة التي أرّخت لأحداث صفّين: أنّ نتائجها كانت مفجعة، فقد تراوح عدد القتلى من المسلمين من الجانبين بين عشرين وسبعين ألفاً. لمعرفة تفاصيل المعركة واختلافات المؤرّخين والروايات بشأن معركة صفّين، انظر على سبيل المثال: (البداية والنهاية) لابن كثير، و(تاريخ اليعقوبي) لليعقوبي، و(مروج الذهب) للمسعودي.

ضربت الغشاوةُ على قلوب فئة عريضة، بايعت اختياراً، وألزمت نفسها الطاعة للخليفة، فإذا بها تشهر السيوف ضدّه وضدّ أتباعه.

رابعاً: عامل الإشفاق أو الموجّه العاطفيّ:

واللافت أنّ الموصي يؤطّر ملفوظاته بعلاقة الانتساب والقرابة، وبما قوامه حرارة عاطفة الأبوّة، وما تستجلبه من خوف وشفقة على الموصَى: **(من الوالد.. إلى المولود)**[1]، **(وجدتُك بعْضي، بل وجدتُك كُلّي، حتّى كأنّ شيئاً لوْ أصابَك أصابَني.. فعَناني من أمْرك ما يعْنيني منْ أمرِ نَفْسي)**[2]. فهو يجعل من عنصر القرابة آليّةً إقناعيّة عاطفيّة، يبدو بموجبها الكلام مجلّلاً بسمات من القداسة الأبويّة، فيحظى بالتصديق والثقة المطلقة من لدن الولد، الذي يعدّ مجرّد سامع طيع، ينبغي أن ينفذ ويقرّر ويتّبع التوصيات الأبويّة.

بل إنّ هذه القداسة يتمّ تمريرها للمخاطب العامّ أو الغير، فما دامت التوصيات موجّهة من أب إلى ولده، فهي صادقة بداهة، وهي جديرة بالثقة، نظراً إلى خصوصيّة العلاقة الواصلة بين طرفيها: **(حيثُ عَناني من أَمْركَ ما يعني الوَالدَ الشَّفيق)**[3]. فلا يمكن لكلام الوالد إلى ولده سوى أن يكون حقّاً وخيراً في ذاته، يستوجب التصديق واليقين.

فيغدو الموصِي شاهداً ذاتيّاً، ذا سمات من الاستضعاف والخضوع أمام أمر الله تعالى ومشيئته، توجّه مشاعر الموصي وعقله نحو التصديق والإذعان. فالوالد منذ مستهلّ النصّ، أجلى شاهد يجلب تصديق المقول. فهو على غنى تجاربه، وعلى سعة اطّلاعه، وغزارة علومه، وعلى طول عمره ومعايشته كثيراً من الأصناف البشريّة، وعلى خبرته بالحياة وأخبار الماضين، ينتهي إلى نبذ الدنيا بما فيها، والتخلّي عنها، طلباً للقاء الله

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٩.
(٢) م.ن، ص٥٧.
(٣) م.ن، ص٦٨.

تعالى، فوجب على الموصَى وعلى المخاطب عموماً، أن يتّخذه عبرة، فيغيّر من سلوكه، ويتصرّف في الحياة، وفق ما يقود إلى النجاة والسلامة، لا إلى الحسرة والندامة.

خامساً: الموصَى (الولد) وسِمَة التخويف:

تشكّل صورة الولد (الموصَى) امتداداً لصورة الموصي في النصّ، فهو جزء منه: (**وَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي**)[١]. بل إنّ الوصيّة تنجز بوحي من رغبة الوالد في جعل الولد صورة مثاليّة عنه، عبر تحصينه ضدّ ما يتهدّده من مخاطر، وما يحيق به من مكر سيّئ. فهو محطّ اهتمام وتعهّد من الوالد، بضرروة التزوّد من الدنيا للآخرة التي هي سعادة الإنسان الكامل: (**كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وكَأَنَّ الموْتَ لَوْ أَتاكَ أَتانِي**)[٢].

فهو يصوَّر من منظور الخبرة العميقة للموصي، محكوم بالرؤية المأساويّة المتولّدة عن إدراك كنه الحياة وحقيقة فعلها في المرء: «.. **إِلَى المَوْلود المُؤَمِّل مَا لاَ يُدْرِكُ، السَّالك سَبيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَض الأَسْقام، وَرهينَة الأَيَّام، وَرَميَّة المَصَائب، وَعَبد الدُّنيا، وَتاجر الغُرور، وغَريم المَنايَا، وَأَسير المَوْت، وحَليف الهُموم، وقَرين الأَحْزَان، ونُصُب الآفات، وَصَريع الشَّهَوات، وخَليفَة الأَمْوَات**»[٣].

يتمّ في هذه الملفوظات حصر الموصى بين لحظتي الولادة والموت، حدّين متقابلين ومتلاحقين ضدّيّاً: (المولود... الأموات)، تجسيداً فنّيّاً لخضوعه لسلطة الموت، ووقوعه ضمن مديونيّتها وقبضتها المهولة. إنّه

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٥٧.
(٢) م.ن.
(٣) م.ن، ص٩.

الكائن المستضعف، والمولود الصغير (حقيقة أو اعتباراً)[١]، في حاجة ماسّة إلى الرعاية والتعهّد والترشيد العاجل، لأنّه مهدّد بكلّ المصائب، وتحيق به الآفات والأخطار من كلّ جانب.

إنّ المُوصَى مخصوص بأربع عشرة صفة، تنصبّ عليه، وترافقه منذ الولادة، كاشفة عن حقيقته الإنسانيّة، كائناً مخوفاً عليه، مستوجباً التدخّل العاجل والمخلّص، لأنّه مهدّد بما قاد الوالد قبله إلى الاستسلام والإقرار بالهزيمة. وفي التعبير عنه بصيغة الغائب، إشعار بكونه في عداد الموتى والمفقودين، وإنْ بدا حرّاً طليقاً، أو عاش لاهياً، سعيداً وادعاً.

ويُستخدم في الملفوظ معجم مخيف، له غايات تأثيريّة واضحة: (هلك - الأسقام - رهينة - رمية - المصائب - غريم - المنايا - أسير - الموت - الهموم - الأحزان - الآفات - صريع - الأموات). فهو معجم يُوجِب الانتباه والحذر، وينبّه إلى ضرورة أن يُؤخَذ الكلام على محمل الجدّ الذي ليس معه هزل، فليس ثمّة مِنْ أمر يُخشى، ولا مِنْ أمر جلل أو حدث عظم خطره، إلا وهو يستهدف هذا المخلوق الضعيف. فهو يواجه حرباً مهلكة، تتعدّد مظاهرها، مشنونة عليه من جهات شتّى، فمعركة في ذاته وداخله[٢]، عبر انسياقه وراء الآمال والأماني، المستحيلة الإدراك والتحقّق جميعها، لأنّه كلّما أدرك مأمولاً انفتحت أمامه آمال جديدة، ولا يكاد يقطع عقبة إلا وتواجهه عقبات. وهو محارب من الأيام، واقع في حكم الرهينة المؤقّتة لها، وسرعان ما سوف تسترجعه، لأنّها لا تتخلّى أو تنسى مطلوبها، وهو في معركة مستمرّة مع المصائب والآفات المحدقة، وكلّها معارك تسبق أو تسلّم إلى المعركة الكبرى، وهي الموت.

ولا تخفى أهمّيّة الاستعارات الموظّفة، ودورها في إحداث التأثير،

(١) بالنظر إلى أنّ مصادر الوصّية تشير إلى أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام قد كتبها إلى ابنه الحسن عليه السلام، وهو يومئذ فوق الثلاثين من عمره. وهذا أمر يفرض أن تقرأ الوصيّة من منظور كونها وصيّة عامّة للإنسانيّة جمعاء. ويفرض قراءة بعض مضموناتها بلحاظها في غير حرفيّتها أو صدقيّتها. فالصغر حالة ملازمة للإنسان، ومهما توهّم في نفسه القوّة والقدرة والكبر، فهو يظلّ في حكم الصغير والضعيف.

(٢) ما يعبّر عنه العرفانيّون ورجال التصوّف بمعركة النفس الأمّارة، أو معركة جنود الشيطان.

والقدرة على النفوذ إلى عمق المخاطب، نظراً إلى عدم انحصار قيمتها في جانبها اللغويّ، وامتدادها لتتناسب و«الأفق الانفعاليّ المتوخّى»[1]. هذا الأفق محكوم بسمات التخويف، وابتغاء التحسيس بالضعف والإشعار بالحاجة إلى الترشيد. فإضافة إلى تحكّم الجرّ في التركيب، وهيمنته على كلّ الملفوظات (إلى المولود..)، وإجراء حكم الجرّ على كلّ صفات المولود، (الاسم الواقع مجروراً في مستهلّ الصورة)، بما يبدو ترجمة فنّيّة لصور الانكسار والضعف، نجد أنّ التصوير يغرف في عمومه من حقل المأساة، انسجاماً مع ظلال الصورة العامّة التي خبرها الموصي عن الحياة. فمعاني الحرب (رهينة - رمية - أسير - صريع - الأموات...)، تبدو آخذة بكيان المولود نحو آفاق مخيفة ومرعبة، تقتضي أن يرقّ لها القلب ويخشع لها، فيقبل النصائح ويهتدي بها.

ولعلّ في اعتماد صيغة الإفراد مزيداً من تعمّد التهويل وتوليد الخوف، فهو وحيد في مقابل التعدّد، وهو مفرد (المولود - المؤمّل - السّالك - غرض - رهينة - رميّة - عبد -تاجر - غريم - نصب - صريع - خليفة)، في مقابل مهدّدات بصيغة الجمع (الأسقام - الأيام - المصائب - المنايا - الهموم - الأحزان - الآفات - الشهوات - الأموات). كلّ ذلك يساهم في تجسيد الضعف البشريّ، ويشعر الذات بالخطر الوجوديّ، فيحصل الإقناع التامّ باستحالة النجاة أو الانتصار.

واللافت أنّ الملفوظات الاستعاريّة - عموماً - منتزعة من المحيط البشريّ المألوف، وممّا يعرفه الموصى نفسه عن الواقع والناس. فهو يعلم جيّداً مدلولات الحرب ونتائجها المفجعة، ويُدرك جيّداً ظلال حالة السجن والرهن، ودقّة الإصابة بالسهم.

ولا يفتأ الموصي يظهر الزمن في صورة القوّة القاهرة المخيفة، التي لا يمكن أن يُؤْمَن بطشُها أو يُسلَم من سطوتها، حقيقة ينبغي أن لا يعشوَ

(١) بيرلمان، التمثيل والاستعارة بين العلم والشعر والفلسفة، م.س، ص١٢٦.

عنها المولود، بما يبدو نهجاً بلاغيّاً يروم تخضيع الذات، والدفع بها نحو الاعتبار، وتحرّي مزيد من التعمّق لإدراك حقيقة الأشياء، واكتساب يقين المعرفة، وتحصيل معدن الحكمة من الوجود: «**أَحْيِ قَلْبَكَ بِالمَوْعظَة، وَأَمتْهُ بالزَّهادة وَقَوِّه باليَقين، وَنَوِّرْهُ بالحكْمَة، وَذَلِّله بذكْر الموْت، وقَرِّرْهُ بالفَنَاء، وبَصِّرْهُ فَجائعَ الدُّنْيا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْر، وَفُحْشَ تَقَلُّب اللَّيَالي والأَيَّام..وَذَكِّرْهُ بمَا أَصَابَ مَنْ كانَ قَبْلَكَ منَ الأَوَّلين، وَسِرْ في ديارهمْ وآثَارهمْ، فَانْظُرْ فيما فَعَلُوا؟ وَعَمَّا انْتَقَلُوا؟ وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا؟ فَإِنَّكَ تَجِدْهُمْ قَد انْتَقَلُوا عَن الأَحبَّة، وَحَلُّوا دَارَ الغُرْبَة، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَليل قَدْ صِرْتَ كَأَحَدهم**»[1].

فالزمن قوّة قاهرة ومخيفة، يستوجب النظر العميق والتأمّل الدقيق، ويستوجب الاعتبار بما فعله في الأمم السابقة، فقد حكم على الجميع بالفناء والزوال، وأذاق الكلّ فجائعه. وإنّ صولته لا تطاق، ولا يستطيع أحد تحمّلها، فإذا تنكّب أو تنمّر، حوّل محاسن المرء إلى مساوئ، والفضائل إلى نقائص. هذا الخطر الحقيقيّ يختار له الموصي طريقاً للمواجهة هو إصلاح شأن القلب وتذكيره وتخويفه، بإرجاعه إلى الواقع وتبصرته بالمصير الذي آل إليه الأوَّلون. لذا، فالمولود مُطالب باستحضار الحقيقة التي لا محيد عنها: «**وَاعْلَمْ أَنَّكَ إنّما خُلقتَ للآخرة لا للدُّنيا، وللْفناء لا للبقاء، وَللْمَوْت لا للْحياة، وَأَنَّكَ في مَنْزلَة قُلْعَة وَدَار بُلْغَة، وطريق إلى الآخرة، وأَنَّك طريدُ الموْت الذي لا يَنْجُو منْهُ هَاربُه، وَلا يَفُوتُهُ طَالبُه، ولا بُدَّ أَنَّه مُدركُه، فكنْ منْه على حَذَر، أَكْثَرْ منْ ذكْر الموْت وذكْر مَا تَهْجُمُ عَليه، وتُفْضي بَعْدَ الموْت إلَيْه..وَلا يَأْتيَنَّكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ**»[2]. فمن كانت هذه حاله فهو ليس أكثر من وديعة مردودة إلى أهلها، وهو في مواجهة الموت مسيّر ومجبر: «**وَاعْلَمْ يَقيناً أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ به وَإِنْ كَانَ وَاقفاً، وَيَقْطَعُ المسَافَة وَإِنْ كانَ مُقيماً وَادعاً**»[3].

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٦٢.
(٢) م.ن، ص٨٩.
(٣) م.ن، ص٩٣.

ولأنّ الموصي يُدرِك أنّ ولده لا يمكنه أن يعيش بمعزل عن الناس، وأنّ وجوده محكوم بمعاشرتهم ومعايشتهم، لزم أن يطلعه على حقائقهم المخيفة، هي الأخرى، وحقيقة العلاقات الاجتماعيّة المرعبة التي تربط فيما بينهم، وأنْ يعرّفه طباع الناس في مواجهة المغريات والملذّات التي لا يسلم من الانغماس في بحرها إلا القليل. وفي هذا الشأن يركّز الموصي على الجوانب السلبيّة في المجتمع، وينتقي الصفات السلبيّة التقبيحيّة التي من شأنها التنفير من الإقبال غير المشروط على الحياة الدنيا: «**فَإِنَّمَا أَهْلُها كلاَبٌ عَاوِيةٌ، وسِباعٌ ضَارِيةٌ، يهرُّ بَعْضُها بَعْضاً، وَيَأْكُلُ عَزِيزُها ذَليلَها، وَيَقْهَرُ كبيرُها صغيرَها، نَعَمُ مُعَقَّلَةٌ، وأُخْرى مُهْمَلةٌ قدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، ورَكِبَتْ مَجْهولَهَا، سُروحُ عَاهَةٍ بوادٍ وَعْثٍ، لَيْسَ لها راعٍ يَقيمُها، ولا مُسيمٌ يُسيمُها، سَلكَتْ بهمُ الدُّنْيا طريقَ العمَى، وأَخَذَت بأَبْصارهمْ عنْ منَار الهُدى، فتَاهوا في حَيْرَتها وَغرقوا في نعْمَتها واتَّخَذُوها رَبًّا، فَلعبَتْ بهمْ وَلعبُوا بها، وَنَسُوا مَا وَرَاءَها رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلامُ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَت الأَظْعانُ، يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ**»[1].

فنلاحظ كيف حشر الناس ضمن دائرة الحيوانات، عبر صورة قاتمة عن سلوكاتهم وعلاقاتهم. صورة سلبيّة محكومة بالشرّ المتأصّل في طباع الناس. حتّى إنّهم يصبحون بمثابة الحيوانات المفترسة، عندما يفتقدون القيم الأخلاقيّة والمعنويّة، وتتحكّم فيهم الأهواء والمطامع. واللافت أنّها صورة مأساويّة عنيفة، تمسخ البشر، وتسلب عن الإنسان إنسانيّته، وتحشره ضمن جنس البهيميّة، وما تحيل إليه من سيادة منطق الغلبة والبطش. وهو أسلوب تقبيحيّ منفّر، يدفع بالمتلقّي نحو دهاليز القتامة المرّة، ويضعه ضمن أجواء التشنيع المخيف، الذي يحرّك النفوس والعقول نحو الفعل الإيجابيّ، والعزم على تغيير السلوك نحو الحسن واجتناب القبيح.

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٨٩-٩٠.

وحيث إنّ الموصي يُدرك أنّه يكثر من الأوامر والنواهي، وإيراد الحقائق التي لا هزل فيها، يلجأ إلى آليّة الإغراء، ضماناً للتشويق، وتحفيزاً على الإقبال، فيؤطّر توجيهاته بلفت نظر الولد إلى قضايا، الخيرُ فيها أظهرُ من الشرّ، والنيلُ فيها أكثر احتمالاً وإمكاناً. فالوصية - عموماً - قائمة على إغراء المولود بالخلاص من خطر المصير المأساويّ القادم، بشرط اقتفاء أثر التوجيهات والإرشادات. فهو سبيل يسلّم إلى تبرئة الذمّة والاطمئنان إلى النجاة. فمهما يكن عظم الانحراف وهول الجرم، فإنّ باب التوبة مفتوح أبداً: «**لَمْ يَمْنَعْك إنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَة، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ في قَبُولِ الإنَابَة، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ في الجَريمَة، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَة**»[١].

هذه الآليّة تتناسب والرؤية العامّة المتحكّمة في البرنامج التخليقيّ للموصي[٢]. فالوصيّة في مجملها قائمة على تلازم حدّين متقابلين تقابلاً ضدّيّاً، حدّ سلبيّ محذور منه (الضعف، الفقر، الخوف، الهوى، الغفلة، العبوديّة، الجهل، الشكّ، الخطأ، الظلم، الإساءة..)، وحدّ إيجابيّ منشود (الرشد، النيل، الاطمئنان، الاستقامة، الصلاح، التوبة، الإيمان، العلم والمعرفة، الخير، الحبّ..). ورسالة الوصيّة هي المساهمة في محاولة إنقاذ الموصى، والأخذ بيده إلى الحدّ الإيجابي، حدّاً مغرياً، يحقّق سلامة الموصَى ونجاته.

سادساً: الوصيّة والبعد الحجاجيّ:

إلى هذا الحدّ تبيّن أنّ خصوصيّة بلاغة الوصيّة مرتكزة على دعامة الذات الموصية، بما هي مكوّن نصّيّ يتشكّل عبر سمات جماليّة، دقيقة ومتخيّرة، لا تنفصل عن الإستراتيجيّة العامّة للوصيّة. ثمّ دعامة الموصى، بوصفه عنصراً نصّيّاً تؤلّفه سمات نصّيّة تنهض من جانبها بوظائف

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٨٧.

(٢) يسجّل محمد العمري الملاحظة نفسها على الخطب الوعظيّة لعلي بن أبي طالب عليه السلام، قائلاً: >قام الوعظ في أوّل الأمر على المزاوجة بين الوعد والوعيد، كما هو الشأن في بعض مواعظ علي بن أبي طالب. انظر كتابه: في بلاغة الخطاب الإقناعيّ، سلسلة الدراسات النقدية(٥)، ط١، الدار البيضاء، دار الثقافة،١٩٨٦م، ص٣٩.

جماليّة غير منفصلة عن غايات الوصيّة. وهما دعامتان لا يمكن فصلهما عن عنصر ثالث، قوامه الحجج البلاغيّة والأسلوبيّة.

فالوصيّة ككلّ خطاب بشريّ فيه «**الشكل والمحتوى متفاعلان**»(١)، تبدو بنية نصّيّة محكومة برغبة الموصي في التأثير، وبتوليد حالات شعوريّة في المخاطب تدفعه نحو الاستجابة والقبول، والعزم على تغيير السلوك. فلازم - إذن - أن يعتمد الموصي «**خططاً وإستراتيجيّات مدبّرة، ويعمد إلى أساليب خاصّة، تكون كفيلة بتحقيق ما ينشده**»(٢).

إنّ جوهر الوصيّة الرغبة في تمرير جملة من القيم الأخلاقيّة والسلوكيّة، ما يجعلها مرتبطة بالطلب، وبمقتضيات الوظيفة العمليّة والنفعيّة المطلوبة في الأدب منذ القديم. فهي خطاب تأديبيّ ترشيديّ يحثّ على الفضائل، ويحفّز نحو صالح الأعمال، تنبيهاً للموصى من الغفلة(٣)، لصياغته صياغة يُطمأَن معها إلى فوزه وفلاحه في حياة الموصي وبعد موته، (**إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيت**)(٤). هذه الصياغة لا تخرج في النصّ عن دفع الموصَى نحو التزام حالة التقوى في معناها الدقيق: «**وَاعْلَمْ يا بُنَيّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخذٌ به إِلَيَّ منْ وَصيَّتي تَقْوَى الله، والاقْتصَار عَلَى مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْك**»(٥)، «**.. في طَلَب طَاعَته، وَالرَّهْبَة منْ عُقُوبَته**»(٦).

ولقد نظّر إلى هذه الوصيّة خطاباً عامّاً «**دستوراً إرشاديّاً لكلّ مسلم،**

(1) PERELMAN, CH.: Le champ de largumentation, PU?, Bruxelle, 1970 , P115-116.

(٢) البهلول، الوصايا الأدبيّة، م.س، ص٩٥.

(٣) لا تبعد الوصيّة عن معاني مادّة (أدب) في الاستعمال اللغويّ، فـ (أَدَبَ فلاناً وأَدَّبه: راضَه على محاسن الأخلاق والعادات ودعاه إلى المحامد). و(تأَدَّبَ بأدب القرآن أو أدب الرسول: احتذاه)، و(الأدب: رياضة النفس بالتعليم والتهذيب على ما ينبغي)، و(المؤَدِّب: من يُختار لتربية الناشئ وتعليمه). انظر: مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط٢، المكتبة الإسلاميّة، لا.ت، ج١، ص٩-١٠.
هذه الغايات التهذيبيّة هي نفسها التي تحدّث عنها تيري إيجلتون، فالأدب عنده كانت له دائماً أبعاد عمليّة نفعيّة..، ينهض بوظيفة التربية والتعليم، وتهذيب الروح، وتمتيع الأنفس، وتحقيق التطهير الداخليّ (نتذكّر وظيفة التطهير عند أرسطو). وقد وظّف دائماً في مجالات الحياة العمليّة ومجالات الدين، ولم يظهر هذا التفريق بين الأدب النفعيّ أو الرسالّي والأدب غير الرسالّي، إلا في الزمن المعاصر». انظر:
Terry, Eagleton: Critique et théorie littéraire, éd. P.u.f , 1994, p11.

(٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦/ ص٥٧.

(٥) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦/ ص٧٠.

(٦) م.ن، ص٧٧.

بل لكلّ إنسان»[١]، ما يرتقي بها إلى مستوى الخطاب العامّ، المستلزم تسخير كلّ العناصر الحجاجيّة الممكنة، والكفيلة بتحقيق ما يُرام من التأثير والإقناع. هذه العناصر تظلّ في مجملها مؤطّرة ضمن إستراتيجيّة «**الحجّة والنتيجة، أو الفعل المطلوب إنجازه والحجّة الباعثة عليه والمبرّرة له**»[٢]، رغبة في التوصّل إلى إذعان المخاطب الخاصّ والعامّ معاً. وهي إستراتيجيّة تسندها أنواع من الحجج البلاغيّة والأسلوبيّة.

١. الوصيّة والتنويع في الحجج:

أ. سلطة التجربة:

يُذَكِّر الموصي بأنّ النصائح التي يوجّهها إلى المولود، هي خلاصة عمر مديد من التجارب والمعايشة الحقيقية للقضايا والأحداث، وناتجة عن طول تأمّل وتدبّرٍ للأمور. فتكون توجيهاته حائزة قيمتها من جانب ما لصاحبها من تجربة في الحياة: (**إنّي وَإنْ لَم أَكُنْ عُمّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلي، فَقَدْ نَظَرْتُ في أَعْمالهم، وَفَكَّرْتُ في أَخْبارهم، وَسِرْتُ في آثَارهم، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدهمْ، بَلْ كَأَنّي بما انْتَهى إليَّ من أُمورهم قَدْ عُمِّرْتُ مَع أَوَّلهم إلى آخرهم، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلك مِنْ كَدَره، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَره**)[٣].

فأمور التجربة والمعايشة والسبق العمريّ توظّف، بصفتها حجّة مقنعة وداعمة لوجهة نظر الموصي، تضفي على القول قيمة تجعله محطّ ثقة زائدة، لأنّه وليد طول تأمّل وتفكّر، وناتج عن تتبّع دقيق لأخبار السابقين، وعن نظر ثاقب في أحوالهم وآثارهم، وعن تمييزٍ واعٍ بين الضارّ والنافع. فما يعرض على الموصى، هو خلاصة الأشياء ومصفّاها ونخيلها. فهو لا محالة مقبول ومرغوب فيه ومنزوع إليه.

هذه التجربة المعروضة على الموصى تغنيه عن كلّ تكلّف أو مغامرة

(١) الخوئي، حبيب الله: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تحقيق: إبراهيم الميانجي، ط٤، طهران، المطبعة الإسلاميّة، بنياد فرهنك امام المهدي(عج)، لا.ت، ج٢٠، ص٤.

(٢) البهلول، الوصايا الأدبيّة، م.س، ص٢٣.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٦٧.

غير معلومة النتائج (.. **مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَه وَتَجْرِبَتَه، فَتَكُون قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وعُوفِيتَ مِنْ عِلاَجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَأْتِيه، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّما أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ**)[١]، و«**إِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ - وَإِن اجْتَهَدْتَ - مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ**»[٢].

فالمعارف والحقائق التي تلقى في صورتها الجيّدة والمصفّاة تغدو محبوبة ومطمأناً إليها، لأنّها صادرة عن جهة أعلم وأغنى تجربة.

وتحوز هذه الحجّة قيمتها الإقناعيّة من جانب إشعار الولد بالأتعاب والمشقّات التي خاضها أهل التجارب، كي يحصّلوا ما حصلوا عليه، فهم قد تعبوا وكدّوا واجتهدوا (ولعلّهم أخطأوا كثيراً)، حتّى استطاعوا أن يحصلوا على النتيجة التي وصلوا إليها. ولأنّ الولد تقدَّم له خلاصات الحياة، وتعرض عليه جواهر المعارف من دون تكلّف ولا مشقّة، رغم أنّها حصيلة جهود وسنين من الكدّ والجهد، فحقيق به أن يأخذها ويعتبر بها، سهلةً يسيرةً، قد كفاه غيْرُه مؤونةَ طلبها أو التعب لتحصيلها.

ب. حجّة القدوة:

يدعم الموصي خطابه بالالتفات إلى نماذج بشريّة تبدو قدوة ومثالاً مقنعاً ينبغي أن يعتبر بها الولد، لأنّها تمثّل الأنموذج في الصلاح والخير: «**وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَه كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ** ﷺ، **فَارْضَ بِه رَائِداً، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً**»[٣]. فالرسول ﷺ خير قدوة للولد، لأنّه يمثّل الأنموذج الأفضل في تجسيد القيم الإيجابيّة، على نحو يجعل السير على هديه طريقاً إلى الفوز والكمال. وكذلك أهل بيته والصالحون من ذرّيّته: «**.. مَا مَضَى عَلَيْه الأَوَّلُونَ مِن آبَائِك والصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِك، فَإِنَّهُم لَمَ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لأَنْفُسِهِم كَمَا أَنْتَ نَاظِر، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّر. ثُمَّ رَدَّهُمْ ذَلِكَ إِلَى الأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَالإِمْسَاكِ**

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٦٦.
(٢) م.ن، ص٧٦.
(٣) م.ن، ص٧٦.

عَمَّا لمَ يُكَلَّفُوا»[١]. فهؤلاء جميعهم قدوة في الصلاح وحسن التدبّر في شأن التعامل مع الحياة الدنيا، على الولد اقتفاء آثارهم، ليضمن النجاة والخلاص من مخاطر الدنيا ومصائبها.

إنّ استدعاء الشخصيّات المتميّزة في سياق الوصيّة يجعل منها وسائل بلاغيّة ذات طاقة حجاجيّة، من جانب ما لها من مائزات (حسن الإنباء عن الله - الريادة - القيادة إلى النجاة - حسن النظر والتفكّر والعمل بذلك). وهي جميعها تصبّ في خانة الرفعة والتميّز القيميّ (القيم الإيجابيّة)، فتغدو قدوة موجبة للاقتناع، وتغدو حجّة تمارس سلطتها على وعي المخاطب، لأنّها ذات شهرة وانتشار.

ولعلّ هذه الحجّة تحوز قوّتها الإقناعيّة من جانب سلطتها المعنويّة، ومن دعامة الغيب أو الوحي، لأنّه من المسلّم به في الثقافة العربيّة الإسلاميّة أنّ الرسول ﷺ، وأهل بيته أناس متميّزون، ولهم مكانة خاصّة منصوص عليها في صريح النصّ الدينيّ. فاستحضار أشخاص القدوة في سياق الوصيّة يُعدّ نهجاً حجاجيّاً، يستغلّه الموصي، لبناء المواقف من خطابه، وسوقها نحو التسليم بالمطالب.

كما أنّ القدوة في الوصيّة تقترن بالفعل الحسن. فالرسول والآباء الصالحون من أهل البيت نماذج لائقة ومغرية، بصفاتهم وسلوكاتهم، وبأفعالهم الحسنة، التي هي قابلة للمحاكاة والاقتداء بها. فهم حجج بلاغيّة في النصّ، دافعة نحو تغيير الأفكار والقناعات، في اتّجاه تصدير السلوك، ونقله إلى الموصى (افعل الشيء ذاته).

ومن خصوصيّات القدوة في الوصيّة، كونها واقعيّة وحقيقيّة، فهي مؤطّرة ضمن حيّز الممكن القابل للمحاكاة والتقليد، على عكس الشواهد الأسطوريّة والخرافيّة، التي قد تستقدم في الخطاب، لتدعم الموقف ووجهة النظر المطروحة، من دون أن تكون قابلة للمحاكاة.

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٧٠.

ج. حجّة الشاهد:

يُغني الموصي كلامه بعديد من الشواهد الداعمة لخطابه، والمساهمة في استمالة الموصى نحو ما يُلقَى إليه، فتكون «**بمثابة الضامن للفعل المبتغى.. شأنها شأن حجّة السلطة**»(١). ويتمّ التركيز أكثر على الشاهد التاريخيّ، إذ يلتفت الموصي إلى الأمم السابقة «**يَا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنْ الدُّنْيا وَحَالِها وَزَوَالِها وَانْتقَالِها**»(٢)، ويرصد مصائرها المفجعة، بما هي حقائق واقعة ومرصودة ومتّفق على صدقيّتها. فهي دليل مقنع، وحجّة قاطعة أيَّ شكٍّ بشأن خطورة الموت، وحقيقة الدنيا المحكومة بالزوال والفناء.

كما يحضر الشاهد عنصراً محفّزاً على ضرورة الاختيار الحسن، وابتغاء الصلاح، وانتهاج التفكّر والتبصّر، سبيلاً في الحياة: «**وَاعْرِضْ عَلَيْه أَخْبَارَ الماضينَ وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيارِهِمْ وَآثارِهِمْ، فَانْظُرْ فيمَا فَعَلوا، وَعَمَّا انْتَقَلُوا وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دَارَ الغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ**»(٣). فعرْض المصير الذي آل إليه السابقون يُعدّ قوّة حجاجيّة يسهل أن يقبلها الموصَى، لأنّها من الأحداث الماضية الناجزة التي لا يمكن نكرانها أو التغافل عنها. إنّ انتقال الأقوام السابقين وفناءهم، أحداث واقعة ومشهود بصحّتها، لا يمكن أن يرقى إليها الشكّ أو الرفض أو الاعتراض. وهي بذلك حقيقة مقنعة، وحجّة دامغة، تستدعي الاتّعاظ والاعتبار من لدن الموصى، وتستلزم أن يغيّر من سلوكه وأفعاله، لأنّه محكوم حتماً بما سبق إليه غيره، وما آل إليه، الانتقال الحتميّ، ومفارقة الأحباب، والارتهان لدار الغربة والوحدة.

كما أنّ حديث الموصي عن حقيقة الحياة الدنيا واستصغاره شأن زخرفها ومتاعها الفاني، ودعوته الولد (المخاطب) إلى عدم الاغترار

(1) Ch.Perleman, L'empire rhétorique, p123.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٨٢.

(٣) م.ن، ص٦٢.

بها، والحذر من مخاطرها وتقلّباتها وانتهائها إلى الزوال، تغدو جميعها أفكاراً مقبولة، لأنّها تنتظم ضمن الخيط نفسه الذي ينتظم الأحداث والوقائع السابقة. فهي حجّة تكتسب قوّتها من مصادقة الناس عليها، ومن تسليمهم بمقتضاها، لأنّها تحظى عند الجميع بالقبول والاحتمال.

ومن استخدامات الشاهد التاريخيّ: «**وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُه..**»(١)، فللإقناع بحقيقة التوحيد يلفت الموصي نظر الولد إلى تاريخ الأنبياء والرسل، فهم على كثرتهم اتّفقوا جميعاً على الإله الواحد، ولم يثبت أنّ أحداً أخبر أو ادّعى أنّه من عند غير الله. فيلزم - تبعاً لذلك - أن لا يشذّ الولد عن الإقرار بهذه الحقيقة المتّفق عليها. ويبدو هذا الشاهد التاريخيّ في الوقت ذاته دليلاً عقليّاً مقنعاً من جانب تلازمه مع نفي الشريك. فثبوت الوحدانيّة لله يقتضي التسليم بتنزيهه عن كلّ شريك، والإقرار بأنّ الكون بما فيه، ومن فيه، من صنع الواحد وتدبيره، وإلا لظهر الاختلاف والتناقض والفساد.

د. التمثيل:

يشكّل التمثيل أو المثل التشبيهيّ آليّة إقناعيّة لافتة في النصّ، فالوالد يمثّل للحالات والمواقف بأخرى مشابهة، يرى أنّها تناسب سياقه الخطابيّ، وتساهم في إقناع الموصى. من ذلك: «**وَإِنَّما مَثَلُ قَلْبِ الحَدَث كَالأَرْضِ الخَالِيَة، مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ، فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ**»(٢)، فمن أجل تحميس الولد نحو تقبّل ما يُلقى إليه من وصايا، وما يُوجّه إليه من نصائح ومواعظ، يمثّل لقابليّته تلقّي التوجيه، واستعداده للتشكّل التربويّ والأخلاقيّ والمعرفيّ، بالأرض الخالية المستعدّة لقبول

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٧٧.

واضح أنّ الموصي يستدلّ في إثبات التوحيد، بما يقرب من الاستدلال في كثير من الآيات القرآنيّة، التي تنفي الشريك، بنفي آثاره التي لا بدّ من ترتّبها على وجوده، لو كان. ومنها على سبيل المثال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١).

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٦٦.

كلّ ما يلقى فيها، فإذا ألقي فيها الصالح، قبلته وأثمرت ما هو من شاكلته، وإذا ألقي في الطالح، قبلته وأعطت ثماراً تشاكله.

ولعلّ هذا التمثيل يحوز قيمته الإقناعيّة من جانب إشعاره الولد (الحدث) بأنّه عنصر فارغ وخال، في حاجة ماسّة إلى العناية من لدن الآخرين، محتاج حتماً إلى التدارك لتجاوز حال الفراغ. وحيث إنّه مهدّد في اللاحق من مراحله العمريّة، بقسوة القلب، وبالخضوع لتأثير جهات غير مأمونة، فإنّ الاستعداد لقبول توجيهات الوالد الآنيّة يكون أقوى، لأنّها موثوقة ومصدّقة بحكم العلاقة الحميمة والعاطفيّة بينهما (وجدتُك بَعضِي بل وَجدتُكَ كُلّي - فعناني من أمرك ما يعنيني منْ أمر نفسي).

كما أنّ في اختيار الأرض ضمن نسيج هذا التشبيه، تعميقاً للنفس الإقناعيّ، لأنّه يحيل المخاطب إلى أجواء الإنبات والاخضرار والإثمار، وغيرها من العمليّات المغرية، التي تحفّز المخاطب نحو تعديل السلوك والعزم على الفعل الحسن المنتِج. ومن ثمّة فهو مدعوّ بداهةً إلى قبول التوصيات، حتّى تكون شخصيّته مثمرة ومفيدة.

ويضرب الموصي مثلاً تشبيهيّاً يساهم هو الآخر في تحميس الولد نحو حسن الاختيار في التعامل مع الدنيا: «**إنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبرَ الدُّنْيَا كَمَثَل قَوْم سَفر نَبَا بهمْ مَنْزلٌ جَديبٌ فَأَمُّوا مَنْزلاً خَصيباً، وَجَنَاباً مَريعاً، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّريق وفراقَ الصّديق وَخُشُونَةَ السَّفر وَجُشُوبَةَ المطْعَم ليَأْتُوا سَعَةَ دَارهمْ وَمَنْزل قَرارهمْ. فَلَيْسَ يَجدونَ لشَيْء منْ ذَلكَ أَلَماً ولا يَرَوْنَ نَفَقَةً فيه مَغْرَماً، وَلا شَيْءَ أَحَبَّ إلَيْهمْ ممَّا قَرَّبَهُمْ منْ مَنْزلهمْ، وَأَدْنَاهُمْ منْ مَحَلّهمْ. وَمَثَلُ مَن اغْتَرَّ بها كَقَوْم كَانُوا بمَنْزل خَصيب فَنَبَا بهمْ إلى مَنْزل جَديب، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إلَيْهمْ وَلاَ أَفْظَعَ عنْدَهُمْ منْ مُفَارَقَة ما كَانُوا فيه إلى مَا يَهْجمُونَ عَلَيْه وَيَصيرونَ إلَيْه**»[1].

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج١٦، ص٨٢-٨٣.

ففي الصورة توظيف للتشبيه التمثيليّ، بما هو شاهد مصطنع[١]، يختلقه الموصي، لتثبيت وجهة نظره في ذمّ الدنيا، وتقبيح الإخلاص إليها، أو اتّخاذها غاية في حدّ ذاتها، وتحوّلها وسيلة تشغل عن الاستعداد لما بعدها، دفعاً بالولد نحو استخلاص العبرة، وانتهاج السلوك القويم في التعامل معها. وهو تمثيل إقناعيّ أو حجّة «**تقوم على المشابهة بين حالتين يُراد استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها**»[٢]. والنهاية المراد استنتاجها تؤول إلى ذمّ الدنيا، والتحذير من مغبّة الركون إليها، والترغيب في استغلالها لما بعدها.

هذا التمثيل يجعل الولد في مواجهة حالين متقابلين، تقابلاً ضدّيّاً:

- الأوّل: يمثّل الاتّجاه القويم المؤدّي إلى السعادة والنجاة، وقوامه نفر تيقّنوا أنّ الحياة الدنيا مجرّد مرحلة عابرة، لا تصلح للاستقرار، فعملوا للآخرة وجعلوها نصب أعينهم، واستعدّوا لها، حقيقة وعملاً، فهم يستسهلون كلّ صعب، ويتحدّون كلّ إكراه، ويتحمّلون المشاقّ والمتاعب، ويؤجّلون كلّ المتع والملذّات، في سبيل الوصول إلى ما هو أفضل.

- الثاني: يمثّل الاتّجاه المنحرف المؤدّي إلى الخسران والندم، وقوامه نفر غرّتهم الدنيا بملذّاتها ومتعها الآنيّة، وركنوا إليها، واستسلموا إلى مغرياتها، وجعلوها غايتهم ومنتهاهم، ولم يعدّوا شيئاً للآخرة. فصعب على هؤلاء أن يفارقوا ما هم فيه إلى ما دونه، ورغم أنّ التمثيل لا يصرّح بالاختيار المطلوب، ولكنّ حجاجيّته تتمثّل في كونه «**يجسّد المحذّر منه، أو المرغّب فيه، بما لا يحصل بغيره**»[٣]، ويُشعِر الولد بضرورة أن يحسم أمره. خاصّة، وأنّ ما يجمع بين الأمرين هو حتميّة الفراق. ويتعمّد الموصي الإطناب في التصوير، عبر عمليّات تفصيليّة دقيقة، تجعل السبيل الأقوم واضحاً بيّناً يغري بالاتّباع.

(١) بحسب تقسيم أرسطو الذي يميّز بين المثال التاريخيّ والمثال المصطنع، الذي يقسّمه بدوره إلى مثل خرافيّ ومثل بالتشابه. انظر: أرسطو: الخطابة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار القلم، ١٩٧٩م، ص١٣٩-١٤٠.

(٢) العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعيّ، م.س، ص٧٢.

(٣) الغروي، محمد: الأمثال في نهج البلاغة، ط١، قم المقدّسة، انتشارات فيروزآبادي، ١٤٠١هـ.ق، ص١٣١.

٢. الوصيّة والحجاج اللغويّ الأسلوبيّ:

ليس الأسلوب سوى رافد آخر من الروافد المساهمة في تشكيل الهويّة البلاغيّة لنصّ الوصيّة، وهو حتماً أحد السُبُل التأثيريّة التي تضمن الإقبال على البرنامج التخليقيّ المنشود[١]. فلا يفتأ الموصي يستنفر كلّ العناصر الأسلوبيّة التي بإمكانها مدّ الخطاب بطاقة توصيليّة فعّالة ومقنعة. بل يمكن القول: إنّ تفعيل الأسلوب وتوجيهه لخدمة أغراض الموصي يُعد أحد ملامح البلاغة النوعيّة للوصيّة.

أ. حجاجيّة الخبر والإنشاء:

من اليسير تلمّس أنّ التنويع في الأساليب، هو أحد ملامح البلاغة الخاصّة للوصيّة موضوع الدراسة، فالموصي يستدعي من الأساليب، ما يتناسب والغايات الحجاجيّة المنشودة. فيوظّف الأسلوب الخبريّ، لتوصيل المعرفة المباشرة، التي يلزم أن يكون الموصى على ذِكْر منها. هذه المعرفة تقدّم - أحياناً - بصيغ مباشرة وجاهزة، تَرِدُ في شكل حكم وأمثال (أكثر من مائة حكمة ومثل)[٢]، يرسلها الموصي إرسال المسلّمات واليقينيّات التي لا مجال لردّها أو الشكّ فيها، وهي تَرِدُ غالباً في صورة أخبار ابتدائيّة لا توكيد فيها، لأنّها صادرة عن ذات خَبَرت الحياة، وعاشت التجارب، واستفادت الحقائق اليقينيّة التي لا مجال لردّها. وأحياناً تقدّم المعرفة في صورة أخبار طلبيّة، بمؤكّد واحد، أو إنكاريّة، بأكثر من مؤكّد،

(١) لقد سبق أن أكّد الجاحظ أهمّيّة مراعاة المتلقّي، وما يستحسنه ويروقه، من أجل ضمان التأثير فيه: «إذا لم يكن اللفظ رائعاً، والمعنى بارعاً، لم تصغ له الأسماع ولم تحفظه النفوس، ولم تتناقله الأفواه، ولم يخلد في الكتب». الجاحظ، أبو عثمان: كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٢م، ج٣، ص٣٤٦.

وفي السياق نفسه حذّر أبو هلال العسكريّ من عواقب الإخلال بهذا المبدأ الذي يضمن تحقّق المقبوليّة، فالكلام «إذا كان لفظه غثّاً، ومعرضه رثّاً، كان مردوداً، ولو احتوى على أجلّ معنى وأنبله». العسكريّ، أبو هلال: كتاب الصناعتين، تحقيق: مفيد قميحة، ط١، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٩٨١م، ص٥٨.

(٢) يشير عبد الله البهلول إلى أنّ التعبير بالحكم والأمثال يُعدّ اختياراً مدبّراً محكوماً برغبة خفيّة في إحداث تأثيرات مقصودة في المخاطب، من جانب تحوّلها إلى قيم ومطالب جماعيّة مشتركة، تستمدّ قوّتها من إجماع البشر عليها وتفضيلها وإحاطتها بأجواء القداسة والإجلال، ومن جانب استغنائها عن قائلها وطبيعتها القائمة على محو الحدود بين صوت القائل (Locuteur) وصوت المتلفّظ(Enonciateur). الوصايا الأدبيّة، م.س، ص٢٣٦.

لتنزيل المخاطب منزلة الشاكّ أو المنكر للخبر، لأنّ الاستسلام لمغريات الحياة الدنيا، والغفلة عن مخاطر الدهر، وتجاهل تقلّبات الأيام وفجائع الموت، تُعدّ بمنزلة الشكّ والإنكار. فاللجوء إلى تأكيد الخبر فيه تنبيه للمخاطب، ودفع به نحو الاقتناع والعزم على الفعل الحسن.

ويُعتمد الأسلوب الإنشائيّ القائم على توجيه المطالب بشكل مباشر وصريح، أو ما يعبّر عنه بـ «**الإستراتيجيّة الحجاجيّة التصريحيّة**»[١]، باعتماد الأفعال الإنجازيّة القائمة أساساً على فعل الأمر (أكثر من تسعين مرّة)، وفعل النهي (أكثر من عشرين مرّة).

واللافت في النصّ اعتماد النداء، بما هو أسلوب يساهم في تحقيق الطلب، فهو «**توجيهُ الدعوة للمخاطب، وتنبيهٌ للإصغاء وسماع ما يريده المتكلّم**»[٢]، يوظّفه الموصي توظيفاً لا ينفصل عن الغايات الإقناعيّة. ففي مستهلّ الخطاب نراه يستخدم أداة النداء للقريب، أي بني (ثلاث مرّات)، إشعاراً بقرب المخاطب من النفس (**وَجَدْتُكَ بَعْضِي بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي - فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي - عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الوَالِدَ الشَّفِيقَ**).

فاعتماد النداء القريب يفيد الرغبة في تقريب المسافة التواصليّة بين الطرفين، ومدّ المخاطب بشحنات من التحسيس بالقرب العاطفيّ، ووضعه ضمن أجواء نفسيّة، قوامها استشعار القرب من الجهة الموصية، ليكون ما يَرِد عليه من توجيهات وتوصيات، مقبولاً ومحلّ ثقّة وتصديق، خاصّة، وأنّ المنادى على امتداد النصّ يعتمد صيغة التصغير (بُنَيّ) الدالّة على التحبيب والتقريب معاً.

وانسجاماً مع الغايات التأثيريّة الإقناعيّة للنصّ، فإنّ الموصي سرعان ما يعدل إلى النداء بأداة البعيد، يا بني (تسع مرّات). فعند إصدار التوصيات للولد يناديه بـ (يا)، فينزّل القريب، حقيقة وفعلاً، منزلة البعيد، اعتباراً، تنبيهاً إلى عظمة ما يوجّه إليه من أوامر ومطالب،

(١) البهلول، الوصايا الأدبيّة، م.س، ص٣٨١.

(٢) حسن، عباس: النحو الوافي، ط١٤، مصر، دار المعارف، ١٩٩٨م، ج٤، ص١٠٢.

وإشعاراً بجسامة هذه المسؤوليّة التربويّة التخليقيّة، التي لا مجال فيها للمحاباة أو التساهل. ولا قرابة ممكنة بين الطرفين (ولو كانت نَسَبيّة)، إلا بالتزام التوصيات الربّانيّة، وانتهاج سبيل التقوى[1].

ويبدو الاستفهام متراجعاً في الوصية، انسجاماً مع منظور المتكلّم للموصَى، بوصفه (غرّاً، حدثاً، مُقْبِلَ العُمُرِ، مُقْتَبِلَ الدَّهْرِ) - بناءً على أنّ هذه الوصيّة تتجاوز كونها وصيّة للإمام الحسن عليه السلام، لتغدو وصيّة إنسانيّة يتوجّه بها إلى كلّ من كان محتاجاً إلى خبرة وتعليم، لا يزال في حاجة إلى التدارك والتوجيه، ممّن خَبَر الحياة، واكتسب المعارف. وقد يصوغ الموصي أفكاره في قالب السؤال، لكنْ، لا يكون الغرض منه تحصيل الجواب، وإنّما ينهض بوظيفة حجاجيّة إقناعيّة، تنسجم مع سياق الوصية التأثيريّ. فهو وسيلة بلاغيّة، وظيفته تحريك همّة الموصى، ودفعه إلى مزيد من التفكّر والتدبّر، لاكتشاف الحقيقة. من ذلك: «**وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ؟**». فالسائل لا ينتظر تحصيل جواب عن سؤاله، بقدر ما يورده في سياق التخليق والدعوة إلى التقوى، ولزوم أمر الله، والاعتصام بحبله.

وقد يَرِد السؤال - أحياناً - في سياق الحديث عن الماضي (.. **فانظر عمَّا انتَقَلُوا؟، وأَيْـنَ حَلُّوا ونَـزَلُـوا؟**..)، فيتحوّل من الطلب إلى إفادة التقرير والإخبار، ويساهم في توصيل المعرفة، وتحقيق التعليم بدل الطلب، انسجاماً مع منطلقات الموصي، طرفاً معلماً، ومصدراً للمعرفة وصاحب السبق والتجربة، في مقابل متلقٍّ حدَث غِرٌّ يستوجب التعليم.

ب. حجاجيّة الإيقاع:

على الرغم من أنّ الوصيّة تنتهج في مجملها إستراتيجيّة النثر المرسل، أو الكتابة الحرّة التي لا تلتزم بقيود تأليفيّة صارمة، ولكنّها لا تعرى في مواطن كثيرة من ملامح إيقاعيّة تساهم من جانبها في

(١) جدير بالبيان أنّ الرابطة العقديّة الإيمانيّة تُعدّ مقدّمة على الرابطة الدمويّة في الإسلام. وهذا ما يُستفاد من خطاب الله لنوح عليه السلام، بشأن سؤاله تنجية ولده من الغرق: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (هود: ٤٥-٤٦).

خلق التأثير الجميل وتحقيق الإقناع، فالسجع في النصّ - مثلاً -، لا يقف عند حدود التأنّق في العبارة، أو التزام القيود الصوتيّة المطربة، بل يؤدّي وظيفة حجاجيّة، إذ يعضد المعنى، ويرسّخ الدلالة في نفسيّة الموصى وعقله. فبملاحظة بعض النماذج -مثلاً-، (**من الوالد الفان، المقرّ للزمان..**)، (**صريع الشهوات، خليفة الأموات..**)، (**فانظر ما فعلوا، وعمّا انتقلوا، وأين حلّوا ونزلوا..**)، (**نظرت في أعمالهم، وفكّرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم..**)، نجد أنّه يساهم في ترسيخ فكرة الموت، وتثبيت حقيقة فناء الدنيا، وتقرير قاهريّة الدهر الراجعة إلى قهر التكوين الإلهيّ، فتواتر الجُمَل في سياق توصيل حقائق مخيفة، يبدو مساهمة صوتيّة، تُبقي رجعَها عالقاً بالأسماع والأذهان، وهو سجع في مجمله قصير الفقرات، يولّد رنّة صوتيّة تحبّها الأسماع وتلتقطها الأنفس، وتَرِدُ على العقول، بسهولة وخفّة.

وقريب منه ظاهرة التوازي الصوتيّ القائم على التقابل بين متواليتين صوتيّتين، تقابلاً تامّاً في الوزن والتركيب النحويّ، من قبيل: (**كلابٌ عاوية// سباعٌ ضارية**)، (**يأكُلُ عزيزُها ذَليلَها// يَقْهَر كبيرُهَا صَغيرَها**)، (**قَارِنْ أَهْلَ الخَيْرِ تَكُنْ منْهُمْ// بَاينْ أَهْلَ الشَّرّ تَبنْ عَنْهُمْ**). ومثله التقابل غير التامّ، عبر الاختلاف في بعض الأصوات: (**المُخفُّ فيها أَحْسَنُ حَالاً منَ المُثْقل// المبْطئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً منَ المُسْرع**). وأحياناً عبر التقابل القائم على مراعاة الاتّحاد في الكلمتين الأخيرتين فقط: (**وَلاَ تَكُنْ خَازناً لغَيْرك// وَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لرَبِّكَ**)، (**شَكَوْتَ إلَيْه هُمُومَكَ// وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ**). وهي جميعها عناصر صوتيّة لها دورها في تثبيت الدلالة وتحقيق الإقناع.

وثمّة احتفاء لافت بالتجانسات الصوتيّة، خاصّة الجناس غير التامّ، عبر المجاورة بين ملفوظات متجانسة جزئيّاً، مع طباق بين معاني الألفاظ -أحياناً-: (**طلب حرب**)، (**اليأس الناس**)، (**الوعاء الوكاء**)، (**يسر عسر**)، (**معين مهين**)، (**الحرفة العفة**)، (**الرفيق الطريق**)، (**دينك دنياك**)، (**تطير تصير**)، (**العاجلة الآجلة**)، (**خبط خلط**)... لها دورها في خلق إيقاع جزئيّ، ينجح في إبقاء المتلقّي متحرّكاً ضمن فضاء صوتيّ

تتعالق ملفوظاته، بما يجرّ السامع نحو الشبكة الدلاليّة للنصّ.

ويؤدّي الطباق الوظيفة عينها، فيوظَّف بشكل لافت في عموم الوصيّة، من خلال المواجهة بين ملفوظات متضادّة دلاليّاً، في صورة طباق السلب: (**تعلم - لا تعلم، تؤتاه - لا تؤتاه، لا تكن - كن ...**). وفي صورة طباق الإيجاب، (**عاجلا - آجلاً، الدنيا - الآخرة، المبطئ - المسرع، جنّة - نار، خصيب - جديب، عزيزها - ذليلها، كبيرها - صغيرها، الليل - النهار، عبد - حرّاً، اليسير - الكثير، الفناء - البقاء، غنى - عسرة، مقدرته - عجزه، حسن - قبيح، ...**).

هذا التواتر بين ملفوظات بعينها، تُضاف إليه المقابلة بين المعنيين المتضادّين: (**فليس كل طالب بمرزوق// ولا كلّ مجمل بمحروم**)، (**قارن أهل الخير تكن منهم// باين أهل الشر تبن عنهم**)، (**أخطأ البصير قصده// أصاب الأعمى رشده**)، كلّها أمور تبدو مجتمعة مساهمة جماليّة تقود نحو تحقيق التأثير، وشدّ انتباه المخاطب إلى محطّات بعينها تلزمه البقاء منها على ذِكر، وتجعله يستشعر حالة من التناقض يلزم التدبّر فيه، ففي الحياة موت خفيّ، وفي الصحّة والسلامة تهديد وعلل مرتقبة، وفي زخرف الدنيا ونعمها هول وخطر.

كما يبدو التكرير ظاهرة لافتة في الوصيّة، يتنوّع بين التركيز على أصوات بعينها، متّخذة صورة التضعيف: (**هّ - يّ - نّ - رّ - ..**)، وغيرها، وبين كلمات بعينها، (**الموت - بني - الله - الدنيا**)، وأحياناً جمل: (**فتفهم وصيّتي - واعلم يا بني - واعلم أنّ أمامك - فإنّي أوصيك**). وكلّها تساهم مجتمعة في خلق نفس إيقاعيّ، ضمن مساحة النصّ، يُوحي بجلال الفضاء الدلاليّ، ويوجّه بصيرة الموصى نحو حقائق الملفوظات. فما يتخلّق من تناغم وإيقاع، يصبح له «**تأثير حجاجيّ، من خلال ما يتولّد منه، من إعجاب، ومرح، وانبساط، وحماس**»[1].

(١) صولة، عبد الله: الحجاج (أطره ومنطلقاته من خلال «مصنّف في الحجاج-الخطابة الجديدة»لبيرلمان وتيتيكاه)، ضمن كتاب«أهمّ نظريّات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم»، منوبة، منشورات كلّيّة الآداب، ١٩٩٨م، ص٣١٧.

خاتمة:

لم تكن غايتنا من المقاربة في هذه المقالة معاينة كلّ الإمكانات البلاغيّة التي تتيحها الوصيّة، بقدر ما كنّا نروم قياس تجلّيات البلاغة النوعيّة لهذا الجنس القوليّ، الذي افترضنا فيه - شأنه شأن الأجناس النثريّة القديمة- تلازم المكوّنين الحجاجيّ والأدبيّ، وتغَيّي الإمتاع والإقناع معاً. ولقد أثبت التحليل إمكانيّة الحديث عن بلاغة نوعيّة للوصية تتأسّس على ثلاث ركائز، يسند بعضها بعضها الآخر. فمن جانب أوّل بدت الذات الموصية عنصراً نصّيّاً يتشكّل عبر سمات، تنتقى بعناية دقيقة، وتكوّن عنه صورة متعدّدة الملامح، قوامها الضعف والاستسلام والخضوع لقاهريّة الدهر الراجعة إلى قهر التكوين الإلهيّ. فكانت مكوّناً جماليّاً له ديناميّته وفاعليّته النصّيّتان، مثلما بدت عنصراً داعماً للخطاب، ومساهمة في الإقناع، بضرورة ابتغاء الدار الآخرة والإقبال على الله تعالى، والإعراض عن الدنيا وزخارفها.

ومن جانب ثانٍ، تبيّن أنّ الموصَى مكوّن أساس في بلاغة النصّ، ويشكّل امتداداً للذات الموصية، عبر انتخاب جملة من السمات التي تصبّ جميعها في خانة التخويف، وتنجح في تشكيل صورة عن طرف مهدّد ومحاط بمخاطر حقيقيّة، تستوجب التدخّل العاجل، قصد التدراك والتخليص. فالموصَى عنصر بلاغيّ حاسم في الوصيّة، أو هو عنصر تكوينيّ تكوُّنيّ، تؤلّفه سمات نوعيّة يختارها الموصي، لحشره ضمن دائرة الطرف الواجب استهدافه، بالترشيد والتخليق، مثلما يساهم من جانبه في سوق الخطاب نحو وجهات تعبيريّة دلاليّة يكون محورها، بل هو منطلقها ومنتهاها.

ولم يكن النصّ ليعرى عن توظيف حجج مباشرة، ومقوّمات لغويّة، أسلوبيّة وإيقاعيّة عديدة، دلّت من جهة، على كون خطاب الوصيّة يحلّق ضمن دائرة الكتابة البادخة التي تعنى بشروط التحسين. ودلّت من جهة

أخرى، تجاوزها مستوى التزيّن أو التنميق الشكليّ، وارتقائها إلى مستوى التوظيف المقنع والمؤثّر، عبر تفاعلها مع مختلف المكوّنات النصّيّة الأخرى، وانصهارها ضمن إستراتيجيّة القول العامّة، وحسن تساندها مع مختلف الخطط الإقناعيّة المعتمدة.